حسن بن موسى الصفار

ولكل أمة رسول

ولكل أمة رسول

الطبعة الثالثة

١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ
اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ

صدق الله العلي العظيم

كلمات...في البدء ٧

قسم أول

لولا أرسلت إلينا رسولاً..... ٩

وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ١٢

معرفة المبدأ والمصير ١٥

هدفية الحياة ١٨

الانتصار للعقل ٢١

نظام اجتماعي ٢٣

تحقيق السعادة ٢٦

كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً.. ..... ٣٠

في الدنيا حسنة.. وفي الآخرة حسنة.. ..... ٣٦

فريقاً كذبوا.. وفريقاً يقتلون.. ..... ٤٤

قسم ثاني

محمد رسول الله..... ٤٩

على شفا حفرة من النار.. ..... ٥٦

قم.. فأنذر.. ..... ٦٠

ساحر.. أو مجنون ٦٥

لا يأتون بمثله.. ..... ٧١

كلمات...في البدء

الموقع الإستراتيجي للدولة الإسلامية، والخيرات التي تتفجر في أرضها.. جعلت منها مطمح أنظار المستعمرين.

والمبدأ الذي تعتنقه الأمة الإسلامية، جعل منها أمة منيعة حصينة، يعجز العدو عن تحقيق مطامعه فيها.

وحينما رأى المستعمر أن الدين عقبة كبرى في طريقه إلى استعمار الدولة الإسلامية، وامتصاص خيراتها وثرواتها، خطط أولاً لإزالة هذه العقبة عن طريقه، وبذل جهوده الطائلة، ومحاولاته الكثيفة، لتقليص الإسلام ولملمته من حياة الأمة الإسلامية. ونجح إلى حد ما، وبنفس المقدار استطاع أن يحقق من مطامعه التوسعية المقيتة.

ومن مظاهر نجاح الاستعمار في مخططه للقضاء على الدين، ما يلاحظ من انقسام غالبية المسلمين إلى قسمين:

قسم تنكر لدينه وأخذ يشكك في أفكاره.

وقسم لبس الإسلام كقشرة مجردة عن اللب.. إذ أهمل الثقافة الإسلامية، ونضب لديه الوعي الديني، فهو يتقمص الأفكار الإسلامية كشكل وليس كروح، كتقليد أعمى وبدون

وعي وثقافة يجابه بهما تيار الانحراف، فيعتقد بوجود الله، لأنه مسلم، ولا يمتلك الأدلة المقنعة، ليقابل بها الطرف الآخر، لذا فهو لا يثبت أما أية شبهة تعصف فكره. ويعطي صورة مشوهة عن الفكر الإسلامي بأنه يربي أبناءه على الجمود، والذيلية العمياء.

وكبداية لانطلاق إسلامي جاد.. علينا أن نطعم أبناء الأمة الإسلامية، بالوعي الديني، ونشبعهم بالثقافة الإسلامية، وقاية عن الانحراف.

وهذه الكراسة التي تتحرك بين أنامل القارئ العزيز، محاولة بسيطة، للإسهام في التوعية الإسلامية للمجتمع، تعالج أحد أهم مواضيع الفكر الإسلامي: موضوع النبوة والأنبياء، أضعها بمناسبة مرور ذكرى ميلاد بطل الرسالة، وخاتم الأنبياء، محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

أرجو أن تكون باعثة للتفكير السليم، عند أولئك المشككين في عقائد دينهم، وأفكار مبدئهم، وتوعية لأولئك البسطاء البعيدين عن أجواء الثقافة الإسلامية، وذكرى للمؤمنين. والله الموفق وهو المعين.

حسن موسى الصفار

الكويت ١٣٩٤/٣/٢هـ

قسم أول

لولا أرسلت إلينا رسولاً

السعادة في هذه الحياة الوعرة.. حلم الإنسان البعيد.

والجسور الموصلة لهذا الحلم مزروعة بالألغام القاتلة..

والطريق مشبع بالمنعطفات والتعرجات التائهة.

والإنسان بين كل ذلك ضائع كعشب في صحراء رمل..

يعيش باحثاً عن خريطة سليمة تدله الدرب إلى ذلك الحلم..

وبعد أن تفشل كل السبل.. وبعد أن يكتشف زيف كل الخرائط الأرضية يتوجه إلى السماء قائلاً:

﴿لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً﴾

وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً..

وأصر الإنسان على أن يتحرر(...) عن طاعة الله وشريعته، متجاوزاً بذلك كل السبل والوسائل التي عبأها الله تعالى لهدايته، والأخذ بيده إلى جنة السعادة، حيت أشعة السماء تشرق على الأرض، لتزرع فيها قصور الضياء، وتغرسها بمشاتل النور، وتملأ أجواءها بالنعيم.

ولكنه حينما أبى إلا الانحراف عن خط السعادة، والتنكب عن طريق الصلاح، تركه الله وسوء إختياره، وما كان يليق بعدله ـ سبحانه ـ أن يجبره على سلوك درب الهداية والصلاح.

وراح الإنسان ـ بفكره الضيق، ونفسه التائهة، وغرائزه الثائرة، يتخبط في بيداء الجهل والانحراف، ويواصل مسيرته الحمقاء نحو الشقاء والدمار! حتى وصل الانحراف قمته، وبلغ الشقاء غايته القصوى في هذا العصر: عصر الذرة والتكنولوجيا!.

الكثير من البسطاء المغرورين ببريق الحضارة المادية، يتنكرون لهذا الواقع، ويقولون:

أليس الإنسان يعيش في أحضان الأقمار الصناعية؟.

ويتحدى الفضاء تحدياً صارخاً؟.

ويفجر الطاقة؟.

ويمارس التكنولوجيا على أرفع المستويات؟.

وهو الآن يحاول تفجير ثورة جديدة في عـلام الصـناعة، بتحويـل هـذا المـاء العـادي إلى (طاقـة) محركـة للماكينـات والمصانع؟

فكيف يستطيع الشقاء أن يمد سيقانه البغيضـة إلى حيـاة هذا الإنسان.. إنسان القرن العشرين؟.

هذا هو رصيد الاحتجاج لديهم، وضـمان صـلاح هـذه الحضارة المادية للإنسان: التقدم العلمي، التقدم الزمني!.

فالعلم والصناعة يقفزان قفزات العمالقة!.

والقرن هو القرن العشرين!.

فهل أبلغ دليلاً على جـدارة هـذه الحضـارة، مـن هـذه الإنجازات الهائلة في مجالي العلم والتكنولوجيا؟.

وهل أعظم ضماناً من أن القرن هـو القـرن العشـرين؟ وما دامـت هـذه الحضـارة وليدتـه، فـلا بـد أن تكـون هـي الحضارة التقدمية اللائقة لهذا العصر.

ونحن لا ننكر للإنسان هذا التقـدم العلمـي والصـناعي

المدهش، كما لا ننكر ما للتقدم الزمني من أثر في ازدياد تجارب الإنسان، ونمو عبقريته، ولكنهما لا يقومان دليلاً على صلاح هذه الحضارة المادية الزائفة، ولا يؤهلان الإنسان للاستغناء عن شرائع السماء، فهناك حاجيات أساسية ملحة، يفتقر الإنسان في سدها إلى خرائط السماء ورسالات الأنبياء، وإذا ما تغافل عن تلكم الحاجيات، فسيدفع ضريبة تغافله هذا بفقدانه سعادته، وهذا هو ما يعانيه إنسان الحضارة المادية المعاصرة، حيث يعيش الخوف والقلق، ويعانق الشقاء والعذاب.

وبشيء من التفصيل نعرض الخطوط الرئيسية، للأمور التي تفرض علينا الاحتياج إلى موضوع النبوة والأنبياء، في كل عصر وجيل.

معرفة المبدأ والمصير

من غرائز الإنسان الأولية غريزة (حب الاستطلاع والتعرف على حقائق الأشياء). فينفق جهوداً طائلة لإشباع هذه الغريزة، حيث يبحث عن ظروف وملابسات ونتائج كل شيء. ولذلك بنى حقول التجربة، ومراصد الجو، واهتم بالصحافة، وشيد معاهد الدراسات النفسية والاجتماعية.. كل ذلك في سبيل إشباع هذه الغريزة الجامحة.

ويتفاوت جموح هذه الغريزة وهدوؤها بنسبة أهمية الموضوع الذي تريد الإطلاع عليه، فكلما كان للموضوع دور أكثر أهمية في الحياة، كان حرص الإنسان على التعرف عليه أكثر، ومن ذلك حرص الإنسان على معرفة مبدئه ومصيره. فحينما يستيقظ فيه العقل، وتتنبه لديه تلك الغريزة، لتطرح أمامه هذه الأسئلة: كيف وجدت؟ ومن أين وجدت؟ ومن أوجدني؟ وكيف أعيش؟ وأين مصيري؟ وما موقفي تجاه المبدأ والمصير؟..

أسئلة حائرة يثيرها العقل، وتصر عليها هذه الغريزة، باحثة عن أجوبة مقنعة. و لا يمكن التغافل والإعراض عنها، لارتباطها بحياة الإنسان ومصيره، بالإضافة إلى أن هناك

الملايين من الناس، يعتقدون بأفكار يقدسونها حول هذه الأسئلة، ويهددون بمصير أسود، لمن يرفض الاعتقاد بتلك الأفكار.. فيزيدون من خطورة القضية. فهل يحق لنا أن نقف سلبيين تجاه كل ما يحملون إلينا من تفسيرات وإجابات.. دون أن نبحث في واقعها..؟

إذا قيل لك: إن عقرباً تسعى خلفك، وتريد الاعتداء عليك، فلا شك أنك ستأخذ حذرك منها، وتقوم بالإجراءات اللازمة للهرب من اعتدائها! فكيف بملايين من البشر يقولون: إن أمامنا حساباً وعقاباً عظيماً، أيصح لنا أن نتغافل ونعرض عن الموضوع..؟ ألا نحتمل أن يكونوا صادقين..؟

ولكن هل نملك القدرة الكاملة للوصول إلى الحقيقة؟

هل يستطيع الإنسان أن يكتشف خالقه ويتنبأ بمصيره؟؟

هنالك عقبات في الطريق:

أولاً: القصور والنقص، اللذان يؤطران الإنسان فكراً وجسماً، ويقفان عقبة في طريق معرفة الخالق، واكتشاف المصير.بالرغم من فطرية الإنسان التي تقوده إلى طريق المعرفة، ولكنها سرعان ما تنحسر إذا ما ضلت بين أمواج الغرائز، وعواصف الشهوات، ودواعي الانحراف.

ثانياً: ولأن الإقرار بالموجد، والاعتراف بالمصير، يحملان

الإنسان مسؤولية ضخمة في الحياة، فيحاول التهرب عن ذلك وإن كان حقاً.

ثالثاً: وحينما يتعمق الإنسان في الحياة، وتملأ المادة عينيه، يكفر بما سواها، فلا يؤمن بما يخرج عن حدود المادة، ولا يلزم نفسه الموضوعية في البحث، فيأخذ بتفسير الحياة تفسيراً مادياً، يوصله إلى القول بالصدفة اللامعقولة، أو الطبيعة العمياء..

إذن فلا بد لنا من نبوة وأنبياء، ينتشلوننا من الحيرة والضلال، ويطرحون على الساحة أجوبة واقعية، وتفسيرات صحيحة صادقة، لكل ما يدور في ذهن الإنسان من قضايا (المبدأ والمصير).

هدفية الحياة

ويفتح الإنسان عينيه ليرى كل ما حوله من كون ووجود، يسير بنظام رائع، وتخطيط دقيق.. ويسعى نحو هدف خاص، وغاية مقصودة. فيتساءل: إن كل ما حولي وجد لهدف خاص، يقوم تجاهه بوظيفة معينة.

وأنا! أأنفرد عن بقية المخلوقات بعبثية الوجود؟ أم أن لي هدفاً خاصاً أسعى بوجودي لتحقيقه؟ وما هو ذلك الهدف؟ وما هو موقفي تجاهه؟..

إنه في حاجة إلى تعاليم سماوية، تبين له الهدف من وجوده، وتقول له: ﴿إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[1] ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[2]

وإذا عرفنا الهدف من وجودنا، فكيف نعرف الطريق إلى خدمة ذلك الهدف؟

المطلوب منا العبادة لنتوصل بها إلى رحمة الله، ولكن:

---

(١) سورة هود آية ١١٩.

(٢) سورة الذاريات آية ٥٦.

العبادة نحن نشرعها؟. وليس لنا قابلية الاتصال المباشر بالله تعالى، وخلاف التنظيم أن يكون لكل واحد منا وحي خاص!

إذن فلا بد من وجود انتخاب إلهي، يتحمل مسؤولية توجيهنا إلى طريق العبادة، حتى نسلكه، ونكون قد عملنا للهدف. وإذا ما انحرفنا عن خط الأنبياء، نكون قد عرضنا أنفسنا للعذاب، في الدنيا والآخرة، وإذا لم تسعفنا السماء بتعاليمها، التي تدلنا على الهدف، وتوجهنا إلى خدمته، فإنها ستظلمنا بضياعنا في هذه الحياة، وعذابنا في الآخرة. ولكنها تبرئ ساحتها عن هذا الظلم وتقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾.[1]

ويتحدث الإمام الصادق عليه السلام في الإجابة على سؤال: من أين نثبت الرسل والأنبياء؟:

«إنا لما أثبتنا أن لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيماً متعالياً، لم يجز أن يشاهده خلقه، ولا أن يلامسوه، ولا أن يباشرهم ويباشروه، ويحاجهم ويحاجوه، ثبت أن له سفراء في خلقه وعباده، يدلونهم على مصالحهم ومنافعهم، وما به بقاؤهم، وفي تركه فناؤهم، فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في

(١) سورة الإسراء، آية ١٥.

خلقه، وثبت عند ذلك أن له معبرين وهم الأنبياء».[1]

فالأنبياء يشكلون جهازاً تشريعياً متكاملاً. يرسم لإنسان الأرض خرائط السلوك، وينسج له خيوط العقيدة.. تمهيداً للربح على الله.. الذي هو هدف خلق الإنسان.

(١) المجلسي: محمد باقر/ بحار الانوار، ج ١٠، ص ١٦٤ـ١٦٥، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ ـ١٩٨٣م/ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

الانتصار للعقل

خلق الله تعالى الإنسان، وأودع فيه الغرائز والشهوات، التي تشده إلى السقوط والانحطاط عن مستواه الإنساني الكريم، وزوده في مقابل ذلك بالعقل، الذي يحد من طغيان الغرائز، وثورة الشهوات، ويسمو بالإنسان نحو العلو والارتفاع. فيعيش الإنسان في داخله صراعاً عنيفاً بين هاتين القوتين، وتتحكم نتيجة هذا الصراع في مصيره وحياته.

ولكن ليس من الإنصاف أن يبقى العقل لوحده يخوض هذه المعركة الضارية، مع عدم وجود التوازن بين قوته وقوة الطرف المقابل.

حيث إن الغرائز والشهوات تجد في نتائجها العاجلة، خير مستمسك للإغراء والخداع. فإذا ما التقى الإنسان بشهوة جنسية مثلاً، وسال لعابه لافتراسها، وثار الصراع بين طاقتي العقل والشهوة.. فالشهوة تجذبه بقوتها إلى الإسراع في إشباعها، بينما يزجره العقل ويهدده من الاقتراب!

وهنا يضع الإنسان المعادلة:

الغريزة تدعوه إلى قطف لذة جميلة، ومتعة حلوة.. ينالها فور إجابته الدعوة، والعقل يهدده بأضرار وخيمة في المستقبل، ويبشره إن هو حطم شهوته بخير آجل وسعادة آتية!

فأيهما ينجح في إغراء الإنسان؟ من يقدم له نتيجة عاجلة، أو من يعده بثمرة آجلة قد لا يثق بها؟

وهنا يحتاج العقل إلى مؤيد خارجي ينتصر له على خصمه، ويعضد دعواه.. ولا يجد انتصاراً حقيقياً إلا في شرائع السماء، وتعاليم الأنبياء، التي تقول: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾.[1]

ويتحدث الإمام الكاظم عليه السلام إلى تلميذه المجاهد هشام بن الحكم رضي الله عنه: «يا هشام إن لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة. فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام وأما الباطنة فالعقول»[2] يشير عليه السلام إلى مدى التجاوب والتفاعل بين العقل والأنبياء، فبالعقل نتبع الأنبياء، وبالأنبياء ينتصر العقل.

---

(١) سورة النازعات آية ٤٠.

(٢)المجلسي: محمد باقر/ بحار الانوار ج١ ص١٣٧، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م/ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

نظام اجتماعي

حياة الإنسان الاجتماعية تحتاج إلى نظام صالح، يشرف على علاقات أفراد المجتمع، وينظم معاملاتهم، ويحل المشاكل والخلافات، ويقرر الحقوق الحدود لكل فرد. وعلى مدى صلاحية ذلك النظام، وحسن تطبيقه، يتوقف استقرار المجتمع الإنساني، وتتوقف سعادته. وقد صارع الإنسان، في أعماق التاريخ هذه المشكلة الاجتماعية، وحاول حلها، وخاض غمار الحروب والمشاكل، من أجل العثور على النظام الاجتماعي الصالح، ولكن الواقع قد أثبت عدم قدرة الإنسان على إدراك النظام الأفضل، لأنه:

أ- يفقد الإنسان المعرفة الكاملة، بالعوامل الطبيعية، التي تلعب دورها في الحياة، والتي يجب أن يحسب لها حسابها حين التنظيم والتشريع.

وأيضاً يفقد الإحاطة بظروف الآخرين، والسير الزمني الذي يمر به النظام، وكل هذا تتطلبه عملية التشريع، ووضع النظام.

ب- يجب أن لا تتحكم الأنانية في تشريع ذلك النظام،

فيميل الإنسان ـ المشرع ـ لصالحه، أو لصالح طبقته على حساب الآخرين. وعسير على الإنسان أن يتجرد من أهوائه وأنانيته.

ج ـ لا يؤمن نشوب الخلاف بين الناس، في اختيار النظام الصالح، وهذا هو سبب ما يعانيه الإنسان عبر التاريخ، من مآس وحروب، وكما يرى الآن من تحارب الأحزاب، وتنازع أهل النظم والأديان.

د ـ لا نملك الضمانات الكافية التي تتكفل لنا بتطبيق ذلك النظام الصالح، وعدم الاختلاف عليه، لوجود النوازع الشريرة، داخل الفرد والمجتمع، وقصور الرقابة الخارجية، عن حماية النظام.

يقول الإمام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء ﵀: «هب أن ندوة الشورى، جمعت لك عقلاء العالم، لهذه الغاية، من سن القوانين، وتشريع الشرائع، ولكن من لك بأن يتفقوا؟ وإن اتفقوا فمن لك بأن يصيبوا؟ وإن أصابوا فمن لك بالثقة بإصابتهم؟ حتى تطمئن القلوب، وتسكن النفوس، وتتمشى تلك الشرائع في الناس، رغبة واختياراً، لا إكراهاً وإجباراً..».[1]

(١) كاشف الغطاء: محمد الحسين/ الدين والإسلام، ج٢، ص١٢، مطبعة العرفان ـ صيدا/ ١٣٣٠هـ.

هذه العوامل، تسلب الإنسان القدرة على إدراك النظام الصالح، وبذلك يثبت عجزه أمام الله.. واحتياجه الكامل إلى السماء..

تحقيق السعادة

كل إنسان يتمنى السعادة وينشدها، ويلعن الشقاء ويتهرب منه، ولكن المشكلة تكمن في عدم معرفتنا لطريق السعادة، فقد يسلك الإنسان دربـاً، يظنه سلم السعادة، بينما ينتهي به إلى هوة الشقاء والبؤس.

لذا يختلف الناس في أساليب الحياة، بحثاً عن الأسلوب الصحيح، الذي يحقق لهم السعادة المنشودة..

البعض يرى أن السعادة تتوفر في تكديس الأموال وجمع الحطام.

وآخرون يتصورون السعادة في التربع على كرسي الحكم والسلطة.

وقسم ثالث يعتقد أنها في الرهبنة والانعزال عن الحياة.

ويظن بعض أنها في لحظات اللذة والمتعة الجنسية.

ولا يستطيع الإنسان التعرف على طريق السعادة، إلا إذا تمكن من الإحاطة بما في الكون من مواده الضارة والنافعة. فالحياة مليئة بعوامل الصلاح وعوامل الفساد، فإذا كانت للإنسان دراية تامة بكليهما، استطاع أن يسلك طريق

السعادة، من خلال أخذه بالأشياء النافعة الصالحة، واجتنابه للمواد الضارة الفاسدة.

ولكن هل في استطاعة الإنسان أن يفصل بين مصالح الكون ومفاسده؟ بكل تأكيد لا.

فالعلم يعرف أشياء كثيرة كانت معرفة الإنسان بها مغلوطة، وتداركها بالإصلاح، وهناك أشياء كثيرة أيضاً لم يكن الإنسان قد توصل إلى اكتشافها، بينما حقق له العلم ذلك. ومعنى هذا: أن من الممكن أن تكون من بين معلومات الإنسان المعاصر معلومات خاطئة، كما أن الثابت أن هناك أشياء كثيرة يكتنفها المجهول. فمن الطبيعي أن يعجز الإنسان عن توفير أجواء السعادة لنفسه. ومع ذلك فهو ينشدها، ولا يريد حياة الشقاء! فمن يدله على سبيلها، ويأخذ بيده إلى أجوائها؟

ليس إلا إرادة السماء، التي تتصف بالعلم المطلق الذي يؤطر الكون بما فيه، فتغرز للإنسان بين مصالحه ومضاره، بين النافع له في الحياة وبين المؤذي، في شكل تعاليم وأحكام: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنْ الْمُصْلِحِ﴾[1]

وإذا كان الإنسان، لا يستطيع أن يحقق السعادة لنفسه في الدنيا التي يعيشها، ويعرف شيئاً ولو ضئيلاً من مقاييسها

---

(١)سورة البقرة آية: ٢٢٠.

وقوانينها، فهو عن تحقيقها في الآخرة أعجز، لأن الآخرة غيب لا يخضع لمقاييسه المادية، فقد يتصرف في الدنيا بما يورطه في الآخرة، من حيث لا يشعر.

«إن حالة الإنسان في الدنيا تشبه إلى حد بعيد الجنين في رحم أمه، فإن كل حركة للجنين قد تؤدي إلى بروز حالات معينة في مقتبل عمره، فلو افترضنا أننا أعطينا للجنين حرية العمل، وافترضنا أنه تفهم حالته، فإنه لن يستطيع أن يعرف آثار تصرفاته في رحم أمه، على وضعه بعد الولادة. وربما سيكون أول تصرف يصدر عنه أنه يقوم بقلع عينيه، لأنه لا يستطيع أن يعرف ـ وهو راقد داخل ثلاث ظلمات ـ فوائد العين. ومن ثم لا يستطيع أن يعرف آثار تعمية العين.. إذ لو سمح الإنسان لنفسه أن ينساق وراء أهوائه ورغباته، فإنه سيرتكب كل المحرمات، وبذلك يخلف آثاراً سيئة على مستقبله الأخروي.

من يقول.. لعل ارتكاب الزنا هنا، يؤدي مثلاً إلى عمى العينين في الآخرة؟ ولعل ترك صلاة الصبح هنا يؤدي إلى العرج في الآخرة؟

إن مقاييسنا لا تستطيع أن تكشف لنا عن آثار أعمالنا، على الحياة الأخرى، تماماً كما أن مقاييس الجنين لا تستطيع أن تكشف له عن آثار أعماله على الحياة الدنيا.

ومن هنا فنحن بحاجة إلى من يكشف لنا عن آثار أعمالنا في الدنيا على الآخرة، وهم الأنبياء.

إن الأنبياء فقط يستطيعون أن يسلطوا الأضواء الكاشفة على ما نحتاج، أو لا نحتاج إليه في الآخرة».[1]

والخلاصة: أن للإنسان حاجيات أولية لا يمكنه التغاضي عنها وهي:

ـ التعرف على المبدأ والمصير

معرفة الهدف من وجوده والسير باتجاهه

الانتصار للعقل

تشريع نظام اجتماعي

تحقيق السعادة في الدارين.

وبما أنه لا يستطيع باستقلاله علاج هذه الحاجيات، فلا بد وأن تسعفه السماء بأشعتها التي تنير له الطريق، لإشباع هذه الاحتياجات المهمة، فكان الرسل وكانت رسالات السماء.

---

(١)المدرسي: السيد هادي/ ألف باء الإسلام ص١٠٩، الطبعة الأولى.

كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً..

يوم كان الإنسان يعيش تلك العصور البدائية: عصور الجهل والظلام. وقبل أن يخطو باتجاه المدنية والتقدم الصناعي.. كان في حاجة إلى تعاليم الأنبياء، ومناهج السماء.

أما الآن وقد تسلق الإنسان هرم الحضارة والمدنية، واستطاع أن يفضح الكثير من أسرار الكون، ويستخدم الكثير من طاقاته.. وبعد هذا التقدم العلمي والتكنولوجي المدهش، فإنه أصبح في نضج عقلي يغنيه عن رسالات السماء، وشرائع الأنبياء.

وقد أثبت إنسان القرن العشرين جدارته بالاستقلال عن السماء، فحقق هذه الإنجازات الهائلة في مجال العلم والصناعة، وأحرز هذا النجاح الكبير في غزو الفضاء، ومبارزة الكواكب.. وهو لا يعترف بالأنبياء، ولا يقدر تعاليمهم، كل ذلك دليل صارخ على كفاءته الذاتية، واستغنائه عما تحمله حقائب الأنبياء .

هكذا يستقبلك الكثير من البسطاء المخدوعين ببريق الحضارة المادية، وبإنجازاتها واكتشافاتها.

ولكن هل صحيح أن الإنسان أصبح مستغنياً عن تعاليم الأنبياء بفضل تقدمه العلمي والآلي؟ أم أنه أصبح أكثر احتياجاً إليها من أي وقت مضى؟

نحن لا نتنكر للتقدم التكنولوجي الذي حققه إنسان القرن العشرين ، ولا نجهل مدى الإنجازات الضخمة التي قام بها، ولكن من يقول: إن الإنسان مادة جوفاء فقط دون أن يحمل بين جنبيه روحاً..؟

الإنسان مادة وروح، وكما ينتعش الإنسان بالتقدم المادي، فهو في حاجة ماسة إلى الوقود الروحي.. لا بد له من روح إنسانية، وضمير عادل، يوجهانه إلى استخدام اكتشافاته واختراعاته في صالحه، وإلا كانت وبالاً عليه. ونظرة فاحصة إلى ما يعانيه إنسان عصر النور من بؤس وشقاء، وتدهور وقلق، وخوف وانهيار.. تكفي للكشف عن زيف هذه الحضارة المادية. فرغم كل هذه الفتوحات العلمية، والإنجازات الصناعية، بقي الإنسان خائفاً يعانق الشقاء، لم يعرف الاطمئنان إلى قلبه طريقاً.

فبالتقدم العلمي صنع الإنسان القنابل الذرية والهيدروجينية.. وصواريخ التجسس حول الأرض.. وحاملات الرؤوس النووية.

وبالتقدم الصناعي قُتل وشُوه الملايين في فيتنام..

وحصلت مجازر الثوار في كمبوديا.. وتستعمر الأراضي العربية في الجولان وفلسطين.. وتقصف بيوت الأبرياء.

وهكذا يفتك الإنسان بنفسه، ويصبح دماره وليد تقدمه.! إنه يتعب في البناء، ويتعب أيضاً في زرع الألغام المدمرة بين زوايا عماراته، وينفق جهوداً في بناء قواعد الصواريخ الموجهة إلى بناياته الشامخة.

« تعلو البناية (٥٠٠) متراً، وتتسع لألف وخمسمائة عائلة.. والله إنها عظمة تفتخر الإنسانية بها حقاً.. حقاً

هكذا يفكر الرجل الساذج عندما يمر في بعض الطرقات في أمريكا يرى أضخم بناية على وجه الأرض، ولكنه لا يرى عدة أشياء تكمن وراء هذا البناء الشاهق. وتحمل بذور فنائه.

ـ لا يرى صاروخاً نووياً ضخماً، يرقد في بعض القواعد الروسية. في أوروبا الشرقية وهو موجه بالضبط باتجاه موقع هذه البناية الضخمة.

حتى إذا دقت الساعة الخطرة.. تحولت البناية إلى خندق عميق.. يلتهب ناراً..

ـ لا يرى أجهزة إليكترونية جبارة يلعب بها فريق من السراق.. ويسلبون الراحة من نفس أصحابها.. حتى أن بعضهم لا يمكنه أن يسدل جفنه باطمئنان فوق عينيه

المرهقتين.

ـ لا يرى سياسة أمريكا.. التي تسبب لأصحاب هذا البناء البرد والظلام والاختناق بسبب أزمة الطاقة، التي يسببها تعنت أمريكا عن الاستجابة للمطالب المشروعة للدول المنتجة للنفط..».[1]

وحتى ارتياد الفضاء.. واحتلال القمر.. الذي يعتبر معجزة هذا القرن، والذي تراقصت له قلوبنا، لم يكن في صالحنا، ولم يكن القصد منه سعادة الإنسان..! بل ليكون منطلقاً ناجحاً للحرب العالمية الثالثة التي تأتي على أكثر سكان المعمورة وبسرعة خاطفة:

« تشير بعض الصحف والمجلات، إلى أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي إنما يهدفان من ارتياد القمر، ومن صرف ملايين الدولارات والروبلات، هذا السبيل إلى أغراض عسكرية، قبل أن يهدفا إلى أغراض علمية وتكنولوجية بحتة، أي ـ وبالتحديد ـ فإنهما يحاولان نقل (أزرار) الصواريخ العابرة للقارات، والحاملة للرؤوس النووية إلى سطح القمر، ليقوما بتشغيلها حين الاحتياج عن طريق الآلات الإلكترونية.

---

(١) حضارة في بيت العنكبوت: دراسة نشرتها مجلة(صوت الخليج) عدد٥٨٥.

وتشير هذه الصحف في هذا المجال إلى أن كل الرواد – الذين تركع لهم الملايين ويدبون على سطح القمر – هم من ذوي الرتب العسكرية، وليسوا من العلماء المدنيين!

وقد اقترح الاتحاد السوفياتي – مؤخراً ـ عقد اتفاقية دولية تقضي بعدم السماح لأية دولة باستخدام القمر لأغراض عسكرية، مما يدل على أن الاتحاد السوفياتي بدأ يتوجس خيفة من استخدام الأمريكيين القمر قبل الروس لمثل هذه الأغراض ولذلك أراد أن يطمئن عن طريق عقد معاهدة سلمية حول القمر!

وهكذا.. فإن مجتمعات الحضارة الحديثة، موبوءة ومهترئة إلى درجة أنها لا تفكر أن يصطاف الإنسان على القمر، في يوم ما، كما تصرح بذلك، وإنما تفكر في: كيف يمكن أن تسجل المصير الدموي للإنسان من على سطح القمر في الأرض »[1]

وقد ضرب القرآن الكريم أروع مثل للحضارة التي تبنى على أساس التنكر لرسالات السماء، كالحضارة المادية المعاصرة، يقول القرآن الكريم:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ

(١)الصادق: صاحب حسين، لماذا المجتمع الإسلامي ص٩٢.

الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١)

هل تعرف شيئاً عن بيت العنكبوت؟

إنه بيت متين الخيوط، محكم النسيج، جميل المنظر، ولكنه أوهن البيوت! لماذا؟ لأنه حين يتم بناؤه يتحول إلى مجزرة رهيبة، حيث تقوم العنكبوت التي بنته بمطاردة كل من يلجه والقضاء عليه.

فبيت العنكبوت أوهن البيوت، ولكن وهنه لا يكمن في ضعف بنائه، وبساطة نسجه.. إنه يكمن في انعدام الأمن والاستقرار فيه.

وهكذا تشبه الحضارة المادية المنحرفة عن رسالات الأنبياء، إلى حد بعيد، بيت العنكبوت، حيث وإن توفرت فيها رصانة البناء، وإحكام الصنع، وأناقة المظهر، ولكنها مجزرة رهيبة لكرامة الإنسان، وراحته، وحريته.

والآن، هل يمكن أن يستغني الإنسان بالتقدم العلمي والتكنولوجي عن تعاليم السماء؟ أم أنه أصبح أكثر احتياجاً إليها من أي يوم مضى؟

---

(١) سورة العنكبوت آية ٤١.

في الدنيا حسنة.. وفي الآخرة حسنة..

للإنسان في الحياة جانبان هما: جانب الروح وجانب المادة. في الجانب الروحي يحتاج الإنسان إلى رياضات نفسية وطقوس دينية، تطعم روحه بالغذاء المناسب، وتربط بينه وبين الخالق.

وفي الجانب المادي تتفاعل الطاقات والقوى المودعة في الإنسان، وتعمل لاستغلال خيرات الكون، وإشباع احتياجاته المادية وتطوير وسائلها.

والأنبياء ينحصر عملهم في الجانب الروحي للإنسان، حيث يقومون بإعداد كمية من الرياضات النفسية، والطقوس الدينية، التي تعمل على تكوين علاقة روحية مع الغيب. وليأخذ الإنسان حريته في الجانب المادي، ولا يسمح لتعاليم الأنبياء أن تتسرب إلى واقع الحياة العملي، أو تتدخل في شؤونه الأخرى.

بهذا المنطق الطفولي يحاول المتشدقون الفصل بين جانبي الروح والمادة، متنكرين للعلاقة الكبيرة بينهما، وتأثير كل منهما على الآخر. والهدف هو عزل الدين عن الحياة.

والغريب أن هذا هو المنطق الشائع بين الكثير من الناس، والذي يتحكم في أذهانهم وحياتهم!

وهؤلاء يجهلون ـ أو يتجاهلون ـ أن الدين إنما جاء لتنظيم الحياة الدنيا، وأن تصرفات الإنسان وسلوكه في هذه الحياة هي التي تقرر مصيره في الحياة الأخرى، وليست همسات روحه فقط.

وهم ينسون أو يتناسون أن أحد أهم الأسس التي يقوم عليها الدين هو: «ليس منا من ترك آخرته لدنياه، وليس منا من ترك دنياه لآخرته»[1] كما يقول. فالإسلام إنما هو عصارة المبدأ الإلهي الذي يوظف الروح والمادة لسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.

وما الفائدة من دين يعالج قضايا الروح فقط ولا يكون له أثر في واقع الحياة العملية. إذن فليكن الاتصال الروحي عن طريق الغيب أيضاً، ولماذا نبوة وأنبياء؟ ولماذا الجهود الطائلة التي ينفقها الرسل؟ والتضحيات الكثيرة التي يقدمها المجاهدون؟ ولماذا التعب والعناء الشديدان اللذان يتحملهما المخلصون؟ ويقيمون الدنيا ويقعدونها؟ أكل

---

(١) الحر العاملي: محمد بن الحسن، وسائل الشيعة ج١٧ ص٧٦، حديث رقم ٢٢٠٢٥، ط١، ١٩٩٣م، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت.

ذلك من أجل اتصال (لا سلكي) تقوم به الروح مع الله؟ من دون أي نتيجة عملية في واقع الحياة؟ كل ذلك في سبيل تكريس عدد من الطقوس الجافة فقط؟

لقد بذل الاستعمار جهوداً كبيرة للفصل بين الدين والحياة نظرياً وعملياً، وحبس الدين بين قضبان المحاريب، وقوقعته بين جدران الطقوس، ونجح إلى حد بعيد..

فالكثير من أبناء الأمة الإسلامية يحملون هذه النظرة السلبية تجاه الدين، وينظرون إلى الأنبياء عبر هذا المنظار الضيق. ومن الناحية العملية ترك المسلمون نظم وقوانين دينهم في واد، وأصبحوا في كل واد من أودية الاستعمار يهيمون، ويستجدون نظماً، ويختلقون قوانين هم في غنى عنها.

ولكن السماء التي تعلم بكل ما سيحدث، اتخذت الإجراءات اللازمة لمجابهة هذا الانحراف العريض.

فرسالات السماء تلقن أبناءها كيف يطلبون من الله، إصلاح دنياهم العملية ومنقلبهم الأخروي ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾[1] وهي بهذا تلفتهم إلى أن إصلاح الدنيا أيضاً بيد الله، وليس الآخرة فقط، فكما لا يصح أن نعتمد على غير الله في قضايا الآخرة، فكذلك لا

(١) سورة البقرة آية ٢٠١.

يصح لنا أن نثق بغير الله في تنظيم أمور الدنيا. ولا بد أن نلجأ إلى الله ليصلح لنا دنيانا وآخرتنا، وذلك بالأخذ بتعاليم الأنبياء، وتطبيق شرائع السماء، فإنها وحدها تستطيع تحسين الدنيا، وتحسين الآخرة.

وتخاطب رسالات السماء كل فرد بأن يعمل للآخرة في زحمة أعمال الدنيا: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً»[1].

وأعدت نظمها وقوانينها العادلة التي تؤطر حياة الإنسان في جميع جوانبها: السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الشخصية.

وفي الجانب التطبيقي لا يزال القائمون بأعمال « سفارة السماء » ينتهزون الفرصة، لدفع عجلة التقدم الإنساني، وإنعاش الحركة المادية، ولكن تراكم الأشواك وازدحام العقبات في طريقهم، هو الذي أدى إلى بطء المسيرة الرسالية في مجال التقدم المادي الصناعي.

ومن ناحية أخرى فإن التخطيط السماوي لإصلاح المسيرة الإنسانية، كان يهدف إلى إيجاد أرضية صالحة لدى

---

(١) الحر العاملي: محمد بن الحسن، وسائل الشيعة ج١٧ ص٧٦، حديث رقم ٢٢٠٢٦، ط١، ١٩٩٣م، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت.

الإنسان أولاً، لكي يسلمه بعد ذلك مفاتيح الكون وكنوز الطبيعة. ويرى أنه من الخطأ أن يقفز الإنسان إلى المرحلة الثانية قبل أن يمر بالمرحلة الأولى التي تؤهله للمرحلة الثانية، وتعلمه كيف يستفيد منها، أما أن يمتلك الإنسان هذه الإنجازات الهائلة في العلم والصناعة، وهو يحمل بين جنبيه أنانية عارمة، وشهوات ثائرة، هي التي تتحكم في حياته، فهذا ما يشقيه ولا يسعده.

ويلاحظ المفكرون اليوم هذا البون الشاسع والفجوة الواسعة، بين طفولة الإنسان الروحية، وتقدمه المادي. يقول بعض الخبراء: إن الإنسان يغزو الفضاء، ويغوص في أعماق الماء، وبعد لما يتقن المشي على وجه الأرض. ويقررون أن واقع الإنسان الأليم هو نتيجة طبيعية لذلك، كمن يدفع شفرة حادة بيد طفل، فليس له أن يستغرب إذا ما نحر الطفل أو جرح نفسه، أو كما لو سلمنا طائرة (الكونكورد) بيد أحمق ـ أو مجنون ـ فسوف لا ننتظر سوى تحطم الطائرة..

على هذه النظرة ترتكز فلسفة السماء، إن التقدم المادي يجب أن يكون مرحلة ثانوية للتربية الروحية، والانحراف عن هذا المنهج الطبيعي يعطي نتائج عكسية كما أثبت الواقع.

فلو واتت الأنبياء الظروف، واستجاب الإنسان لدعواتهم، لينهي المرحلة الأولى، وينتقلوا به إلى المرحلة

الثانية، لاختصروا له الطريق، وحققوا له نجاحاً أكبر، وأراحوه من عناء كثير، والأهم من ذلك: لشعر بلذة السعادة في ظل تقدمه ومدنيته.

ورغم كل هذه العقبات، فالأنبياء هم رواد النهضة الإنسانية في أعماق التاريخ، وفي طليعة الموكب البشري التقدمي.

«ولأن ظهور الأنبياء كان ضرورياً من الناحية القيادية، فإننا نجد أن منعطفات التاريخ تبدأ من انبعاث نبي من الأنبياء، وليس من ظهور ثورات اجتماعية -كما يحلو للخرافيين التشدق به- فهجرة المجتمع الإنساني من التوحش إلى التحضر، ومن التحضر إلى التعلم، إنما تمت بهداية مباشرة من الأنبياء، وليس بجهود أي أفراد آخرين».[1]

ورسالات السماء هي التي بنت للإنسان صرح معرفته وعلمه النظري، وزودته بالأفكار الصحيحة حول الكون والحياة، ليسير على ضوئها في طريق التقدم الصناعي.

والحجاب الزمني الكثيف الذي يحجز بيننا وبين الأنبياء، هو الذي أخفى عنا الكثير من أنباء إنجازاتهم وتحركاتهم في المجال الآلي المتمدن.

---

(١)المدرسي: السيد هادي/ ألف باء الإسلام، ص١٢٢، الطبعة الأولى.

وقد كشف أهل البيت عليهم السلام النقاب عن بعض ما حقق الأنبياء للمجتمع البشري من اكتشافات واختراعات مادية:

عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام أن أول من عمل المكيال والميزان شعيب النبي عليه السلام عمله بيده.[1]

وعن الإمام الصادق عليه السلام :أن أول من اتخذ السُّكَّر سليمان بن داوود عليه السلام.[2]

وورد أن أول من عمل الدروع الحربية: النبي داوود عليه السلام.[3]

وورد أن أول من خط بالقلم، وأول من خاط الثياب النبي إدريس عليه السلام.[4]

ويرجع الإمام الصادق عليه السلام في حديث طويل ـ خبرة الإنسان الطبية إلى الأنبياء، وإلا فمن الصعب جداً على الإنسان أن يشخص الداء، ويهتدي إلى الدواء.. وخاصة في سالف العصور.[5]

---

(١)المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٣٨٢، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م/ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

(٢)المصدر السابق، ج ١٤ ،ص٧٠.

(٣)المصدر السابق، ج١٤، ص ٤.

(٤)المصدر السابق، ج ١١ ص٢٧٩.

(٥)المصدر السابق، ج ٣ ص١٨٠ـ١٨٩.

ويعتبر أهل البيت عليهم السلام وهم الامتداد الطبيعي لرسالات السماء- واضعي أسس أكثر العلوم الحديثة، كالكيمياء، والفيزياء، والجيولوجيا والطب والفلك.

فلأهل البيت عليهم السلام نظريات كثيرة في الطب، في صورة تعاليم وإرشادات، تصدى لجمعها بعض العلماء، وطبع بعضها مؤخراً: -كطب النبي صلى الله عليه وآله وطب الرضا عليه السلام وتوحيد المفضل- وفي نهج البلاغة يعرض الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الكثير من حقائق الكون وعلوم الفلك.

ويعتبر الإمام الصادق عليه السلام ملهم الكيمياء، حيث خصص قسماً مستقلاً في جامعته الدينية -في القرن الثاني للهجرة- والتي كانت تضم زهاء (٤٠٠٠) طالباً، لدراسة علم الكيمياء، وكان من أبرز خريجيه، جابر بن حيان، الذي استفاد العلم الحديث كثيراً من رسائله الثلاثمائة التي كتبها في مختلف فروع الكيمياء، وتحتفظ بها مكتبات فرنسا وألمانيا وإيطاليا.

وهكذا يكون شعار رسالات السماء: ﴿فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾[1]. شعاراً صادقاً.

---

(١) سورة البقرة آية ٢٠١.

فريقاً كذبوا.. وفريقاً يقتلون..

كانت دعوات الأنبياء كلها تهدف إلى إصلاح المجتمع الإنساني، لتحقيق العدالة في ربوعه، وتوفير السعادة في أجوائه، بالقضاء على جميع عوامل الشر والفساد، والضرب على عصابات الجريمة والاستغلال، وحماية حقوق الإنسان من الاعتداء والهتك، وكف الشهوات عن الانزلاق والانحراف.

وطبيعي أن لا توافق هذه الأهداف هوى من يريد العيش على شهواته وأهوائه، وبلا حدود وقيود، وليس في صالحه أن تتحكم هذه الأهداف في الحياة، لذلك كان موقف أكثر المجتمعات من الأنبياء موقفاً سلبياً، حيث يكثر وجود العوامل الشريرة والمنحرفة فيها، ولأن الرسل كانوا مكلفين بالتبليغ، ومأمورين بتخطي هذه العقبات، مهما كانت صعبة وشاقة، فقد صمموا على مواصلة طريق الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله، مهما كان شائكاً ووعراً.

وحصل الاصطدام بين الأنبياء وأهواء مجتمعاتهم المنحرفة، فكانت النتيجة، أن تعامل تلك المجتمعات رسل الخير والسعادة، معاملة سيئة ووحشية، لا لشيء إلا لأنهم يحاربون أهوائهم وانحرافهم. يقول القرآن الكريم:

[كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ][1].

وكانت طبيعية كل تلك المعارك التي كانت تنشب بين الأنبياء وأقوامهم. ذلك لأن الأنبياء كانوا يحملون دائماً (رسالة ثورية)، (تحاول تغيير ما هو كائن)..

ودائماً (ما هو كائن) يرفض التغيير.. والثورة.. فكان الاصطدام بين الحركة التغييرية التي يقودها الأنبياء، وبين الواقع الكائن. الذي يرفض التغير والتبدل.

ولذلك كان الرسل يعيشون العذاب والألم.. من أجل أهدافهم، وفي سبيل الله.. والحق.

والإمام الصادق عليه السلام يكشف لنا عن هذه الحقيقة التاريخية، حينما يقول:

«.....وإن كان النبي ليأتي قومه، فيقوم فيهم، يأمرهم بطاعة الله، ويدعوهم إلى توحيد الله، وما معه مبيت ليلة، فما يتركونه يفرغ من كلامه ولا يستمعون إليه، حتى قتلوه...»[2].

ويقول الإمام الحسين عليه السلام:

---

(١)سورة المائدة آية: ٧٠.

(٢)المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار، ج ١١، ص ٦٦، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م/ دار إحياء التراث العربي-بيروت.

«....أما علمت أن من هوان الدنيا على الله، أن رأس ـ النبي ـ يحيى بن زكريا أهدي إلى بغي من بغايا بني إسرائيل! أما تعلم أن بني إسرائيل كانوا يقتلون ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس سبعين نبياً! ثم يجلسون في أسواقهم يبيعون ويشترون كأن لم يصنعوا شيئاً»[1]

ومكث نبي الله نوح عليه السلام في قومه (٩٥٠) تسعمائة وخمسين سنة، يجد في دعوتهم إلى الله، كما يتحدث القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا﴾[2] ولكنهم تعصبوا لجاهليتهم، ورفضوا التغيير رفضاً قاطعاً، يقول القرآن الحكيم: [قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ،فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا، وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ،ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ،ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ،فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا][3]

وبعد كل هذا كان الرجل يأتي بابنه وهو صغير، فيقف به على رأس النبي نوح عليه السلام ويقول له: يا بني إن بقيت

---

(١)المصدر السابق، ج ٤٤، ص٣٦٥.

(٢)سورة العنكبوت آية ١٤.

(٣) سورة نوح، آية ١٠.

بعدي، فلا تطيعن هذا المجنون.[1]

لماذا..؟

لأن نوحاً النبي عليه السلام كان يحاول تغيير هذا المجتمع ولكن المجتمع الجاهلي الذي تجذرت فيه المفاهيم الزائفة، والقيم المادية البحتة، كان يرفض الاستجابة للتغيير. وكان ينظر إلى حركة النبي « التغييرية الرسالية » أنها حركة تحاول ابتزاز عقائدهم، وقيمهم، ومفاهيمهم التي ورثوها من آبائهم الضالين.. لكي تطعمهم بعد ذلك بأفكار جديدة ترفض الاستجابة لأهوائهم، وشهواتهم ومصالحهم، التي يستصعبون التنازل عن عبادتها ليل نهار.

ولذلك كان الأب يغذي ابنه بالحقد على هذا النبي، حفاظاً على تجذر القيم التي يحاول النبي نسفها، في نفسية الجيل القادم.

وبعد أن يثبت نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام الحجة على قومه، ويعجزون عن مقابلته بالدليل. يوقدون له ناراً تعبوا في جمع وقودها، ويسجرونها حتى لتصطاد طيور الجو من مسافة بعيدة، ويقذفون فيها الرسول العظيم!

---

(١)المجلسي: محمد باقر/ بحار الأنوار، ج ١١، ص ٢٨٧، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م/ دار إحياء التراث العربي-بيروت.

ولماذا.. أيضاً؟

لأن النبي إبراهيم عليه السلام كان يحاول زرع إسفين مدمر في صرح (ألوهية نمرود) و (عبادة الأوثان).. كان يستهدف حرق كل المفاهيم الوثنية الكافرة.. والقضاء على كل القيم الشركية..

وحيث كانت الغشاوات السميكة تغطي أسماعهم، وأبصارهم وأفئدتهم، وتمنع عقولهم من التفكير المنطقي السليم، وجدوا أن أفضل حل للإبقاء على الوضع الفاسد، هو التخلص من هذا العنصر الغريب، الثائر على مجتمعه، وواقعه.. فمارسوا حرقه بالنار.

وهكذا.. ذبح النبي يحيى في طست!

وقطعت أوصال النبي زكريا بالمنشار!

وطرد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم من بلده وأوذي أشد الأذى! كل ذلك. وألف مثل ذلك.. لماذا؟

لأن مسيرة الأنبياء كانت مسيرة تغييرية، ولذلك كانت مرفوضة من قبل المجتمعات التي انعجنت بواقعها الجاهلي الظالم.

قسم ثاني

محمد رسول الله

كان محمد هو الإنسان، وهو القائد، وهو النبي..

جاهد في سبيل سحق الجاهلية السوداء..

وعمل من أجل بناء حضارة إسلامية.

وكافح طويلاً في سبيل تكوين الأمة الإسلامية، التي تحدت كل عواصف التاريخ.

محمد النبي.. تجشم كافة الصعوبات من أجلك.. أيها الإنسان المسلم.. وقاتل.. وضحّى من أجل هدايتك أنت..

فلتكن وفياً لمبادئه.. ولقيمه.. وليكن الدين خريطتك في الحياة..

ذاك هو:

محمد رسول الله..

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن عبد مناف.. يمتد نسبه الشريف إلى الخليل إبراهيم عليه السلام من جهتي الأب والأم، فأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف.

ولد ﷺ يوم الإثنين في السابع عشر من ربيع الأول عام الفيل – ٥٧٠ م.

توفي أبوه عبد الله وهو جنين في بطن أمه.

تكفله جده عبد المطلب عليه السلام.

ماتت أمه وعمره ست سنوات.

وبعد أن مات جده عبد المطلب تكفله أبو طالب وعمره ثمان سنوات.

نشأ في قومه معروفاً بالآداب والصدق والأمانة.

شارك في حلف الفضول الذي عقده بعض شخصيات قريش الذي ينصُّ على الانتصاف لأي ظالم من أي مظلوم.

وضع في حداثة سنه حلاً وسطاً بين القبائل العربية، التي كادت الحرب أن تنشب بينها، منازعة على رفع الحجر الأسود إلى مكانه، حيث بسط رداءه، ووضع الحجر فيه، وأمر أن تأخذ كل قبيلة بطرف من أطراف الرداء، وبذلك تشارك كل القبائل في التشرف برفع الحجر.

سافر في مستهل عمره إلى الشام في تجارة خديجة بنت خويلد، وبعد ذلك تزوجها وعمره خمس وعشرون سنة.

كانت لديه رحلات منتظمة، يخلو فيها في غار حراء، حيث ينقطع إلى عبادة الله سبحانه وتعالى.

بعث بالنبوة في ٢٧ رجب وعمره أربعون سنة.

لم يستجب قومه في مكة لدعوته بل جابهوه بالرفض الشديد، وعاش الأذى والألم منهم ثلاثة عشر سنة، وهم

يستعملون مختلف الأساليب، للقضاء عليه، وإخماد دعوته.

لما صمموا على قتله خرج مهاجراً إلى المدينة المنورة، حيث استقبله أهلها أحسن استقبال، وبذلك فتحت صفحة جديدة في تاريخ الدعوة الإسلامية.

عرج به إلى السماء بعد البعثة باثنتي عشرة سنة، وبعد أن أسري به من المسجد الحرام في مكة، إلى المسجد الأقصى في فلسطين، كل ذلك في غضون ليلة واحدة.

وفي المدينة أسس الدولة الإسلامية السعيدة، والتي حطمت جميع العوامل المناوئة في ما يقارب (٨٢) معركة، بقيادة الرسول الأعظم ﷺ وفي بعضها كان يكتفي ببعض قواده. واستطاع فتح مكة المكرمة عام ثمان للهجرة.

تزوج بأكثر من تسع زوجات لأهداف تخدم دعوته، ومن أشهر زوجاته أم المؤمنين خديجة، وأم المؤمنين أم سلمة، وأم المؤمنين عائشة.

رزق ولدين قبضا في حياته، وله بنتان عدا فاطمة الزهراء، التي اختصها الرسول بعناية كبرى، حتى قال: «فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها» وهي سيدة نساء العالمين وفيها انحصر نسله ﷺ.

بلغ ﷺ القمة في أخلاقه وآدابه حتى وصفه الله تعالى

بقوله: [وإنك لعلى خلق عظيم][1].

أعجب به كل من اطلع على سيرته، حتى ممن لم يدينوا بدينه، واعترفوا له بالعظمة والحنكة السياسية، وأنه رجل الإنسانية الأول.

اختاره الله تعالى إليه في السنة العاشرة للهجرة، وعمره ٦٣ سنة، قضاها في بث الدعوة الإسلامية، وإصلاح المجتمع الإنساني، بعد أن نص على الخليفة من بعده وهو الإمام أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام.. وبعد أن جاءه الوحي من قبل الله: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾[2] فبلغ صلى الله عليه وآله وسلم ونص على ولاية أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب في موارد كثيرة وخصوصاً غدير خم المشهور.

دفن في داره بالمدينة، حيث حرمه الشريف، مهبط الملائكة، ومزار المؤمنين، ومرفأ الرحمة والبركة.

لا تزال دعوته الإسلامية تسري في جسم أكثر من ألف مليون إنسان، تنتظر اليوم الذي تقود فيه البشرية إلى الرخاء والسعادة، في ظل الإسلام.

---

(١) سورة ن آية ٤.

(٢) سورة المائدة آية ٦٧.

على شفا حفرة من النار..

العالم على شفا حفرة من النار!

الإنسانية تعيش الاحتضار!

الانحطاط يتوغل في حياة الإنسان!

كل ذلك كان في القرن السادس والسابع الميلادي، حيث غاب الدين عن مسرح الحياة، وانعدمت الأخلاق من أجواء المجتمع، وعمت الفوضى ربوع العالم، وتحكمت الأنانية بأبشع أشكالها، وساد الانحلال الاجتماعي، والقلق الاقتصادي في الناس.

فمسيحية جوفاء، ويهودية منحرفة، ووثنية سخيفة، وطبقية ظالمة، واستغلال بشع، والإنسان في خضم هذه الديانات المتطرفة، والنظم الجائرة، غصن ذابل، تتلاعب به عواصف الرياح، في صحراء قاحلة. فكرامته مسلوبة، وحريته مغتصبة، وإنسانيته ضائعة..

والجزيرة العربية قطعة من ذلك العالم المنهار.. مسرح للفوضى والفتن.. تعيش تدهوراً شديداً في جميع الجوانب:

فمن الناحية الدينية: الأصنام تعبد، والأوثان تؤله

وتقدس، بالإضافة إلى فئة من النصارى واليهود المنحرفين.

وفي الجانب الاجتماعي: كانت العصبية القبلية – الحمية الجاهلية – تتحكم في المجتمع، وشعارهم: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. فكانت الأشياء التافهة تثير لديهم حروباً شعواء، كحرب (البسوس) التي استمرت أربعين سنة، حتى قال عنها المهلهل أخو كليب: «قد فني الحيان وثكلت الأمهات ويتم الأولاد.. دموع لا ترفأ وأجساد لا تدفن» كل ذلك لسبب بسيط: رجل رمى ضرع ناقة من قبيلة أخرى!

وكانت المرأة في ذلك المجتمع الجاهلي، لا تعامل كإنسان لها كل حقوق الإنسان، بل كانت مهانة محتقرة، تبخس حقوقها، ويعتدى على كرامتها، حتى أن بعض القبائل كانوا يئدون البنات، كما يتحدث القرآن الحكيم:

[وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ،يَتَوَارَى مِنْ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ][1]

وانتشر شرب الخمر، وشاع الزنا، وكثرت بيوت البغاء..

ومن الناحية الاقتصادية: لم يكن لهم نظام اقتصادي

---

(١)سورة النحل آية: ٥٨ـ٥٩.

معين، يتحكم في معاملاتهم، وكانت من وسائل الكسب لديهم: تجارة الخمر والرقيق، والبغاء والقمار، وقطع الطرق.. ومن أهم موارد الثروة لديهم (الغارات)، حيث تهجم القبيلة القوية منهم على القبيلة الضعيفة.. لتسلب أموالها، وتأسر فتيانها وفتياتها.. بالإضافة إلى رحلات تجارية بين الشام واليمن.

وفي الجانب السياسي: كانوا يعيشون قبائل متفرقة، كل قبيلة تستبد بحكم نفسها، ولا يخضعون لقيادة موحدة تنظم حياتهم السياسية.

وتلخص السيدة الزهراء عليها السلام بضعة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم مدى الانهيار والتدهور الذي وصل إليه المجتمع الجاهلي في تلك الفترة، في خطبتها المعروفة بخطبة فدك:

«وكنتم على شفا حفرة من النار.. مذقة الشارب، ونهزة الطامع وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون القد أذلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم».[1]

في مثل هذا الوضع السيء، يقود الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم بن عبد الله، وهو وليد ذلك المجتمع، وربيبه، يقود ثورة

---

(١)الأمين: السيد محسن/ أعيان الشيعة، ج١ ص٣١٦، دار التعارف للمطبوعات ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

تغييرية، وحركة إصلاحية عامة، نجحت في قلب الأوضاع الاجتماعية، ورسم الانعطافة التاريخية الخالدة.

قم.. فأنذر..

عاش الرسول الأعظم ﷺ في أجواء ذلك المجتمع أربعين سنة، عاشها بجسمه، أما روحه فقد كانت بعيدة عن تلك الأجواء، وغاضبة عليها.

عرفه المجتمع خلال الأربعين عاماً مصلحاً اجتماعياً، استطاع على حداثة سنه أن يلعب دوراً كبيراً في تجنيب المجتمع حرباً طاحنة، كادت تقع بين القبائل العربية، تنافساً على وضع الحجر الأسود في مكانه، فقد بسط رداءه، بعد أن أخذ منهم الوعد بالقبول بحكمه، ووضع الحجر في وسط (رداء الصلح) وقال: لتأخذ كل قبيلة بطرف من أطراف الرداء، حيث تتساوى القبائل المتنازعة في شرف رفع الحجر. وهكذا استطاع محمد بفكره الوقاد، وسياسته الحكيمة، أن يطرد عن المجتمع حرباً شعواء، وفتنة كبيرة.. وكم كان إكبارهم لمحمد – حينئذ – الذي يجهلون مستقبله.. وسرورهم برأيه؟

وحينما طغى الظلم والفساد في المجتمع، تحمّس بعض شخصيات أشراف قريش، واقترح عقد حلف، يهدف إلى الانتصار لأي مظلوم من أي ظالم، وكان الرسول الأعظم

ﷺ في طليعة المؤيدين للحلف المعروف (حلف الفضول) الموقعين عليه والملتزمين به.

فكان يتمتع بسمعة طيبة بين الناس، وحاز رضا المجتمع، وكسب ثقة الناس، وأصبح خير مظهر للصدق والأمانة، والأخلاق الكريمة، حتى أنه كان يعرف بـ (الصادق الأمين).

بالإضافة إلى شرف العائلة التي تولد منها، والتي حظيت بالإكبار والاحترام في المجتمع العربي، فكان محبوباً في أهله، مرضياً عند مجتمعه، وقد لاحظوا منه انعزالاً تاماً عن تقاليدهم الجاهلية، وعاداتهم السيئة، فلم يروه يشاركهم في تقديس الأصنام، وعبادة الأوثان، وكان يتجنب مجالس اللهو، ولعب القمار.. ويشمئز من شرب الخمر..

وكان المجتمع يفقده في فترات منتظمة، حيث يقضيها ﷺ في غار حراء، وينعزل لعبادة الله، ويشكوه سوء أوضاع المجتمع المنحرف، وما كان يرافقه أحد في هذه الرحلات الروحية، إلا ابن عمه وربيبه علي بن أبي طالب عليه السلام.

وفي إحدى الرحلات، حينما عزم النبي ﷺ على الرجوع إلى داره، حيث الزوجة الوفية في انتظاره. وخرج من الغار، وإذا به يرى النور يغمر الأجواء من جميع الجهات، فوقف يتأمل مصدر النور وغرضه.. وعندها تم اللقاء التاريخي العظيم، بين حبيبي الله: أمين الوحي جبريل، أفضل الملائكة

المقربين. ورسول الله محمد ﷺ أفضل الأنبياء والمرسلين.

ابتدأ جبريل بالسلام على الرسول الأعظم ﷺ، وردَّ الرسول عليه تحيته، وهناك جرى أول وأفضل اتصال وحيي بين السماء والأرض ـ بعد انقطاع طويل ـ، وبلغه جبريل أن الله قد أذن له في الدعوة إليه، وفي الإنكار على الانحراف.. وعهد له بالنبوة والرسالة.

وتحمل النبي ﷺ مسؤولية التبليغ الثقيلة.. الثقيلة. مسؤولية تفجير ثورة عارمة في العالم، وتغيير مجرى التاريخ!

آب إلى بيته وقد أضفي عليه رداء الرسالة، وأشرق منه نور النبوة.. مثقلاً بأعباء الدعوة.. واستقبلته زوجته الطاهرة – خديجة – وربيبه علي فكانا أول من آمن به وصدقه، لإيمانهما بشخصيته من قبل، واستشفافهما روح النبوة والرسالة من ملامحه.

وتدثر الرسول ﷺ على فراشه بغية استجمام الراحة، ولكن الوحي نزل عليه، يحثه ويستعجله في تبليغ الدعوة:

﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ.

قُمْ فَأَنذِرْ.

وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ، وَلاَ تَمْنُنْ

تَسْتَكْثِرُ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ..﴾[1]

وغادر الرسول فراشه، ومضى ممتثلاً لأمر الله، عازماً على إنذار قومه، وملؤه النشاط والجد، وحرارة الإيمان تتوقد في قلبه.

صعد على جبل أبي قبيس، ونادى في الناس فاجتمعوا له، واهتموا بأمره، لأنه ولأول مرة يجمعهم، مع نظرتهم الكبيرة له، فقال، وكلهم أذن صاغية: أرأيتكم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني؟

فأجابوه سريعاً وبدون تردد: كيف لا نصدقك وأنت الصادق الأمين؟

وبعد أن أخذ منهم الإقرار والاعتراف له بحسن السيرة والسلوك، صارحهم بهدفه، وأعلن الدعوة: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا.

وكم كان المشهد مريعاً ومدهشاً بالنسبة إليهم: إن محمداً الصادق الأمين، يريد القيام بثورة جذرية في المجتمع، ولكنها ليست شخصية، إنه لا يدعيها، وإنما ينسبها إلى الله تعالى، وهاهو يوجز أهداف ومنطلقات ثورته، في كلمات رائعة جميلة.. لا إله إلا الله! ويقول: إنها فقط القادرة على

---

(١) سورة المدثر آية ١ـ٧.

إسعادهم والتحليق بهم في أجواء الفلاح!

هكذا.. فجر الرسول ﷺ حركته الإصلاحية، باسم الله، وللدعوة إلى الله..

لا باسم القومية العربية، وكان في استطاعته ذلك ـ مع ملاحظة مكانته الاجتماعية ـ فيثيرها قومية عربية، تستهدف تجميع قبائل العرب، التي تعيش التمزق، وتعاني الحروب والتنازع، ولو أن محمداً تقمص الدعوة إلى القومية العربية، لاستجابت له القبائل، فيوجهها وجهة قومية، لاستخلاص أرضها المغتصبة من الإمبراطوريات المستعمرة، التي تسيطر على أخصب أراضيهم، وتمتص ثرواتهم.

وكان في استطاعة محمد أن يرفعها راية اجتماعية، تنتصر للطبقة الكادحة الفقيرة، التي كانت تشكل أكثر المجتمع، وهم الطبقة العاملة، ويتم له حينئذ ما يريد.

لقد كان يعرف كل تلك الطرق، وأنها أسهل من الطريق الشائك الذي سلكه، ولكنه بأمر الله تعالى اختار هذا الطريق، فباسم الله ثار، وباسم الله حارب الأوضاع الفاسدة.. وإلى الله دعا الناس.

ساحر.. أو مجنون

وراحت دعوة الرسول ﷺ تدوي في الآفاق.. وتتجاوب معها الأصداء: «لا إله إلا الله».

وراح العرب يتفكرون في ما تعنيه كلمة «لا إلـه إلا الله» فهم يعرفون أن الألوهية تعني: الحاكمية العليا، وحصـرها في الله يعـني الإطاحـة بسـلطان الأرض، فـلا مجـال للأصـنام والأوثـان، ولا كلمـة للكهـان، ومشـيخة القبائـل، والأمـراء والحكام.. لقد أدركـوا مـا تعنيـه هـذه الكلمـة، مـن الثـورة العامة، على أوضاعهم، ومفاهيمهم، وسلطانهم..

وهناك أدركوا أن حركة محمد تشكل خطـراً كـبيراً علـى أوضاعهم وتقاليدهم، ولكنهم بادئ الأمـر لم يعـيروه أهميـة لوثوقهم بـرفض المجتمـع كلـه لهـذه الـدعوة الجديـدة، الـتي تسـتهدف نسـف قيمـه ومفاهيمـه.. فاصـطدام الـدعوة بالجماهير، ومخالفتها لهم، كفيل بتحطيمها وإجهاضها!

ولكن لقد تحطمـت آمـالهم، وفشـلت معـادلاتهم، أمـا دعوة محمد ﷺ فقد نجحت في تجميع العناصر الشابة، الـتي تمثـل حيويـة المجتمـع، حولهـا، وخلقـت لـديهم روح الثـورة

والتضحية، وصاروا يحملون أفكار الرسول وحماسه.

اجتمعوا في مؤتمر سريع، لاتخاذ الإجراءات اللازمة، لمقاومة الدعوة الجديدة، التي تهدد كيانهم وأوضاعهم.

واتفقوا بأن أولى خطوة يتخذونها لمجابهة الرسول هي: تشويه سمعته الاجتماعية، فليعرضوا القائمة السوداء، وليختاروا منها تهماً، وألقاباً كاذبة يتفقون على إلصاقها بالنبي ﷺ، وتم اختيارهم لـ: ساحر، مجنون، كذاب مفتري.

وهذا ما تلجأ إليه غالب المجتمعات في مواجهة أنبيائهم. يقول القرآن الكريم: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا: سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾. وحينما يتفق مجتمع على اتهام أحد أبنائه بتهمة كهذه التهم، فإنه ولا شك تتحطم شخصيته، ولا يثق الناس به، ولكن محمداً لم يخضع لهذا القانون الطبيعي، لأنه محفوف بعناية إلهية، لا تعترف بهذه القيود والعادات.

ومضت الدعوة تشق طريقها إلى القلوب، وتنتقي الطاقات الفعالة في المجتمع ـ الشباب ـ مما أزعج المشركين، وألجأهم إلى الاجتماع مرة ثانية، ليناقشوا فشل الخطوة الأولى، وعدم تأثيرها على الرسول ﷺ.

وقام النضر بن الحارث، وقد كان من سادة قريش، وأكبر المعارضين للنبي ﷺ، وكان يعد من المحنكين في مكة،

فألقى خطاباً افتتح به المؤتمر قال:

«يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أرضاكم خلقاً، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم: ساحر! لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم. وقلتم: كاهن، لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر، لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه. وقلتم مجنون، لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه. يا معشر قريش فانظروا في شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم».[1]

وبدأوا المفاوضات، وقدمت الاقتراحات، حول حل حاسم للقضية التي باتت تقلقهم، فقرروا أن محمداً إنما قام بهذه الحركة، بسبب عقد نفسية تكونت لديه، حيث كان يعيش اليتم والحاجة، فولدت له مطامع وأغراضاً شخصية مادية، يريد الثأر لنفسه، فلنعرض عليه الأغراض المحتملة، لنكتشف نفسيته، ونعرف نواياه.

---

(١)ابن هشام: عبدالملك/ السيرة النبوية، ج١، ص٣٢٦، الطبعة ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م/ مكتبة العبيكان.

وجاء إليه مندوبهم، ليقول له: يا محمد إنك من أوسطنا بيتاً، وأعظمنا شرفاً. وقد جئت قومك بما فرقت به جماعتهم، وسفهت أحلامهم، فما لك وهذا؟ وقد جئنا نعرض عليك أموراً لعلك تقبل أحدها، فتريح نفسك، وتبقي على قومك: فإن كنت تريد المال جمعنا لك حتى تكون أكثرنا مالاً! وإن كنت تريد الجمال: زلفنا لك أجمل فتياتنا وغلماننا! وإن كنت تطلب السلطة: سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك.

انتهت عروضهم، وأصغوا ليسمعوا جوابه، آملين أن تنجح خطتهم، ليهدأ بالهم، وبعد برهة قليلة من الصمت السائد، انطلق ﷺ ليقرأ عليهم:

«بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿حم، تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

(١) سورة الإحقاق آية ٤.

وهكذا استولى على قلوبهم ببلاغته، وقطع محاولاتهم، وحطم آمالهم، بإجابته الصريحة. وقال ﷺ «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته أبداً حتى يظهره الله أو أموت دونه».

والدعوة ما زالت تشق طريقها، تحطم العقبات، وتكنس الأشواك، وقررت قريش أن تستعمل أسلوب العنف والقوة، ضد الدعوة ومعتنقيها، فصاروا يعذبون من يقع في أيديهم من أتباع الرسول ﷺ وأصحابه، ولكنهم فوجئوا بصمود عجيب، وعزيمة قوية، فإذا كان العبد الحبشي بلال، يقترب منه شبح الموت تحت وطأة العذاب والعقاب، وهو يقول: أحد أحد.! أفيرجون من علي ابن أبي طالب أو من محمد التنازل عن مبدئهما؟.

تعاهدوا على مقاطعة بني هاشم اقتصادياً واجتماعياً، أو يسلمون إليهم محمداً، ولجأ بنو هاشم بما فيهم شيخ البطحاء أبو طالب إلى شعب له ـشعب أبي طالبـ، بعد أن رفض التخلي عن حماية الدعوة، ورائدها العظيم النبي محمد ﷺ، ولما لم تُجد كل تلك المحاولات، قرروا الفتك بالرسول ﷺ ،في ظلام الليل الحالك، وفي بيته البسيط، وعلى فراشه الشريف، وأن يتوازعوا دمه بين القبائل، فاختاروا أربعين رجلاً من أربعين قبيلة، وساعدهم على ذلك، أن اختلس القضاء من محمد عمه المجاهد أبا طالب عليه السلام، واتفقوا على

قتل الرسول ﷺ في إحدى الليالي، وهنا تدخلت العناية الإلهية، لتخرج محمداً الرسول ﷺ من داره، وهم محدقون به، ولا يشعرون، واضطجع علي ابن أبي طالب عليه السلام على فراشه لتغطية أمره، معرضاً نفسه للقتل والموت، فداءاً لابن عمه العظيم، ومبدئه المقدس.

ونجا الرسول ﷺ من شبكة الفتك التي أعدها له قومه، وهاجر إلى المدينة المنورة حيث الأجواء مهيئة لاستقباله، والقلوب للقائه.

وفي المدينة قامت الدولة الإسلامية بقيادة الرسول الأعظم ﷺ وتضحيات أبنائها المخلصين، وأصبحت دولة عالمية تربعت على كرسي سيادة العالم.

لا يأتون بمثله..

سفارة السماء منصب خطير، تطمح إليه الأنظار، وتشرئب نحوه الأعناق، يود كل إنسان أن يتقمصه، فهو معرض لأن يتطفل عليه. وبالفعل لقد حفل التاريخ بكثير من الأدعياء، الذين ادعوا مقام الرسالة والنبوة، لولا الاحتياطات التي اتخذتها السماء لصيانة قداسة رسالتها، وإغلاق الطريق أمام المغترين والدجالين.

فمن الأحكام العقلية التي أودعها الله في أذهان الناس: أن أي ادعاء لا يشفع بالدليل، فهو ادعاء مرفوض. وأمضت السماء هذا الحكم العقلي، فهي تزود كل سفير من قبلها بأوراق اعتماد، تدل على صدق إدعائه، ليعذر الناس بتصديقه، ويعاقبوا على تكذيبه. يقول الله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.[1]

وأوراق الاعتماد هنا تعني (المعجزة) وهي حدوث شيء ما، من غير تدخل للعوامل الطبيعية فيه، مما يشكل حدوثه خرقاً للقوانين المألوفة لدى الإنسان..

---

(١) سورة الأنفال آية ٤٢.

وهي بذلك تدل على ارتباط بين محدثها وبين إرادة السماء، التي سمحت له بخرق القوانين الطبيعية، ولو كان كاذباً عليها، لما جاز لها أن تؤيد كذبه.

والرسول الأعظم ﷺ حينما جاء يدعي سفارة السماء، كان مزوداً بأوراق الاعتماد، التي تدل على صدق ادعائه.

كانت أوراقاً متعددة، تلزم كل إنسان بالاقتناع بصدقه ﷺ، فجماعة طلبوا أن تكون معجزته هي شقُّ القمر إلى نصفين، فكان ما أرادوا وأثبت عليهم الحجة.

وجماعة طلبوا اقتلاع شجرة ضخمة من منبتها، ومجيئها خاضعة له، مصدقة لادعائه، وجاءت حينما أشار إليها الرسول ﷺ تخدّ الأرض خدّاً، وتعترف بصدقه ﷺ حسبما يطلب قومه، كل ذلك لإلزامهم الحجة.

ولكن المعجزة الكبرى والخالدة للرسول ﷺ، هي القرآن الكريم، والذي يمتاز عن بقية معجزاته وسائر معاجز الأنبياء بأمرين:

الأول: الارتباط الوثيق بذات الدعوة: المعجزات الأخرى مهمتها أن تثبت للناس صدق ادعاء النبي فقط، ولا علاقة لها بموضوع الدعوة. فمثلاً: النبي موسى عليه السلام جاء يدعو الناس إلى عبادة الله وتوحيده، وكانت معجزته العصا، التي تأكل ما يصنعون من سحر، والملاحظ أنه لا ارتباط بين

العصا وبين الدعوة إلى عبادة الله، وإنما هي دليل على صدق ادعائه فقط. أما القرآن الكريم فإنه يؤدي وظيفة المعجزة، التي تصدق ادعاء الرسول ﷺ، وفي نفس الوقت هو منهاج دعوته، ودستور شريعته.

الثاني: الخلود: بقية المعاجز تكون محدودة بحدود زمنية، فحيث تنتهي ينتهي دورها. أما القرآن الحكيم، فهو معجزة خالدة، لجميع العصور والأجيال، لأن الرسالة التي أتى بها القرآن، هي الأخرى رسالة خالدة، لا يحدها زمن، ولا يقيدها مكان.

ولا يزال القرآن معجزة الإسلام الخالدة، يتحدى الفكر البشري، أسلوباً ومعارفاً وتشريعاً:

أما أسلوباً: فإن القرآن الكريم نزل في وقت بلغت فيه اللغة العربية حد النضوج، وكانت البلاغة والفصاحة في أوجها، حيث العناية الكبيرة من المجتمع العربي للأدب والبلاغة، فلهم مواسم أدبية خاصة، وأسواق كبيرة، يعرض فيها كل أديب إنتاجه الأدبي، ويقوّم من قبل زعماء اللغة والأدب، وهناك تختار روائع ما يلقى لتكتب بماء الذهب، وتعلق على الكعبة، ومن ثم كانت المعلقات التي لا تزال قمة في الروعة والأدب.. كان الدور دور القافية والكلمة، فالكلمة قادرة على أن تثير حرباً، أو تنشئ صلحاً، وبيت

من الشعر باستطاعته أن يرفع قبيلة، أو يضع أخرى.. كما يظهر من تاريخ الأدب العربي.

في ذلك الوقت نزل القرآن الكريم باللغة العربية، وبالأسلوب البلاغي، وكان المجتمع العربي ضده، وتحداهم القرآن تحدياً سافراً:

تحداهم أن يستطيعوا الإتيان بمثل القرآن، حتى ولو استعانوا بالجن: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1].

ثم تنازل معهم في الطلب زيادة في التحدي، فالمطلوب ليس قرآناً كاملاً مثله، وإنما عشر سور فقط: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.[2]

وأخيراً طلب إليهم الإتيان ولو بسورة واحدة: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.[3]

---

(١) سورة الإسراء آية ٨٨.

(٢) سورة هود / آية ١٣.

(٣) سورة البقرة / آية ٢٣.

وما كان في استطاعتهم مقابلة تحدي القرآن، وإلا لما لجأوا إلى استخدام القوة والعنف، ولما قذفوا بأفلاذ أكبادهم في غمار الحروب، وكذلك لم يحفظ لنا التاريخ ولا معارضة واحدة، رغم المناوءة المستمرة عبر التاريخ للقرآن.

التاريخ ينقل لنا محاولات فاشلة، قام بها المشركون في مواجهة القرآن، منها:

جاء في الحديث: أن قوماً أتوا رسول الله ﷺ فقالوا له: ألست رسول الله؟ قال بلى.

ـ وهذا القرآن الذي أتيت به كلام الله؟

ـ نعم.

ـ فأخبرنا عن قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾[1] إذا كان معبودهم في النار، فقد عبدوا المسيح! فتقول: إنه في النار؟

قال ﷺ: إن الله سبحانه أنزل القرآن عليّ بلغة العرب، والمتعارف في لغتنا أن (ما) لما لا يعقل و (من) لمن يعقل و (الذي) تصلح لهما جميعاً. فإن كنتم من العرب فأنتم تعلمون هذا، قال الله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون﴾ يريد الأصنام التي عبدوها وهي لا تعقل، والمسيح لا يدخل في

(٢)سورة الأنبياء آية ٩٨.

جملتها فإنه يعقل.[1]

وأما في المعارف التي عرضها القرآن: فإنها الأخرى ناحية إعجاز! فإن القرآن الحكيم، خاض جميع حقول العلم والمعرفة، واستعرض حقائق كونية، ونظريات علمية، كانت مجهولة، طوال الأربعة عشر قرناً الماضية، ولم يكتشفها العلم الحديث، فيجد القرآن قد سبقه إليها، ككروية الأرض، وحركتها، وانعدام الأكسجين في الفضاء..

والقرآن يتحدى الناس بالمعارف التي جاء بها، فهل يستطيع الإنسان أن يعارض شيئاً من معارف القرآن، أو يثبت خطأ نظرية من نظرياته؟

وضع التشريع: والقرآن يتحدى الناس بالتشريع الإسلامي الذي عرضه، فهل يستطيع الإنسان أن يجعل له نظاماً بديلاً عن الإسلام؟ لقد حاول الإنسان ذلك، واختلق عدة أنظمة، ووضع كثيراً من القوانين، ولكن لقد أثبت الواقع فشله وعجزه، وظهر صدق تحدي القرآن: ﴿لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾.

فللتشريع الإسلامي ميزات تجعل البشر عاجزاً عن الإتيان بمثله:

---

(١)المجلسي: محمد باقر/ بحار الانوار، ج ٩، ص ٢٨٢، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م/ دار إحياء التراث العربي-بيروت.

أولاً: الشمول: فإنه شامل لجميع نواحي البشر، ويعالج كل مشاكل الحياة، روحية ومادية، وليس كالنظم الأخرى، التي تتجه لجانب، على حساب الجانب الآخر: والأديان التي عرفها الإنسان في لونين: روحي يرفض المادة أو مادي يهمل الروح، ولكن النظام الإسلامي هو وحده المادي ـ الروحي.

ثانياً: المرونة: حيث قواعده العامة، التي تساعد مرونتها على استنباط أي مسألة جديدة. فالإسلام الذي جاء في دور تتحكم فيه فلكيات بطليموس، نستطيع أن نستنبط منه أحكام الصلاة على سطح القمر والمريخ والزهرة..

ثالثاً: الانسجام: النظام الإسلامي الذي عرضه القرآن، منسجم في نفسه، ومع الحياة، منسجم في ذاته بمعنى «ليس فيه اختلاف بين المبدأ والشريعة والأخلاق، كالخلاف الذي نجده في المبادئ الأخرى ـ فالقرآن مثلاً يقر مبدأ التوحيد ثم لا يشذ عنه في صغير أو كبير، بل يصدر عنه كل شيء في الدين، بعكس المبدأ الماركسي، فإنه يتبنى مبدءاً في الفلسفة يناقضه أحكامه في التشريع أو في الأخلاق».[1]

ومنسجم مع الواقع الخارجي: فإن تشريعاته لا تناقض فطرة الإنسان، ولا تصطدم مع سنن الكون، وقوانين الحياة،

---

(١)المدرسي: السيد محمد تقي/ الفكر الإسلامي مواجهة حضارية، ص٢٦٥، الطبعة الخامسة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٨م/ دار البيان ـ بيروت.

أما المبادئ الأخرى فقد جعلت الإنسان في تناقض مع ذاته ومجتمعه وكونه.

وبهذا فإن الإسلام وحده يصلح للتطبيق، أما المبادئ الأخرى فعندما أتيحت الفرصة لبعضها، رفضها الواقع كالشيوعية، مما اضطر أصحابها إلى أن يصطنعوا تكتيكاً خادعاً، فيأخذون بالاشتراكية كمرحلة أولية للأخذ بالشيوعية.

وهذه الأمور ناشئة من أن القرآن هو من عند الله خالق الخلق، ومدبر الكون، ولذا فإن البشر: لا يأتون بمثله.